مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء

الدكتور رمضان عبد التواب

بسم الله الرحمن الرحيم

تخلط بعض الشعوب العربية بين صوتي الضاد والظاء خلطاً كبيراً في النطق والكتابة ، كما هو الحال في بعض بلاد العراق وشمالي أفريقيا . وليس صوت الضاد الشـــائع في مصر وبلاد الشام بأسعد حظاً من صنوه في العراق وبلاد المغرب ؛ إذ انه تطور في اتجاه آخر من صوت الضاد القديم ، وإن لم يختلط هنا بصوت الظاء ، كما حدث له في تلك البلاد .

فالضاد التي ننطقها الآن في مصر ، عبارة عن صوت أسناني لثوي انفجاري (شديد) مجهور مفخم ، ينطق بأن تلتصق مقدمة اللسان باللثة والأسنان العليا ، التصاقاً يمنع مرور الهواء الخارج من الرئتين ، كما ترتفع اللهاة والجزء الخلفي من سقف الحلق (وهو المسمى بالطبق) ليسد التجويف الانفي ، في الوقت الذي تتذبذب فيه الأوتار الصوتية ، وترتفع مؤخرة اللسان قليلاً نحو الطبق ، ثم تزال هذه السدود فجأة ، فيندفع الهواء المحبوس إلى الخارج ، فنسمع صوت الضاد .

والضاد بهذا الشكل ، تعدّ المقـابل المطبق ، أو بعبارة أخرى المقابل المفخم لصوت الدال . غير اننا إذا نظرنا الى وصف القدماء لها ، من النحويين واللغويين وعلماء القراءات ،

عرفنا أن الضاد القديمة تختلف عن الضاد التي ننطقها الآن ، في أمرين جوهريين :

أولهما : أن الضاد القديمة ليس مخرجها الأسنان واللثة ، بل حافة اللسان أو جانبه .

وثانيهما : أنها لم تكن انفجارية (شديدة) ، بل كانت صوتاً احتكاكياً (رخواً) .

فقد عدّها الخليل بن أحمد في حيّز الجيم والشين ، وهما من الأصوات الغارية ، التي تخرج من الغار ، وهو سقف الحنك الصلب ، فقال في كتاب العين (٦٤/١) وهو يذكر أحياز الحروف : « ثم الجيم والشين والضاد في حيز واحد » .

كما يقول سيبويه في الكتاب (٢ : ٨/٤٠٥) : « ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد » . ويوضح ذلك المبرد ، فيقول في كتابه المقتضب (١٩٣/١) : « ومخرجها من الشدق ، فبعض الناس تجري له في الأيمن ، وبعضهم تجري له في الايسر » ، كما يقول ابن جني في سر صناعة الإعراب (٥٢/١) : « ومن اول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد ، إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن ، وإن شئت من الجانب الأيسر » .

يتضح من هذه النصوص الفرق بين الضاد القديمة والضاد التي ننطقها الآن ، وأنها كانت جانبية ، وليست أسنانية لثوية . اما الفرق الثاني ، وهو أنها لم تكن انفجارية ، بل احتكاكية أو رخوة ، فيتضح من قول سيبويه (١ : ٣/٤٠٦) في تقسيم الحروف : « ومنها الرخوة وهي : الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد والزاي والسين والظاء والثاء والذال والفاء » . ومعنى الاحتكاك أو الرخاوة هنا أن الهواء يتسرب عند النطق بالصوت محتكاً بنقطة تضييق في مجراه ، بعكس الانفجار أو الشدة ، إذ يقوم عائق أو سد في مجرى الهواء عند مخرج الصوت ، ثم يزول هذا العائق فجأة فيخرج الهواء منه دفعاً فيحدث الصوت .

وقد عرفنا من قبل أن الضاد التي ننطقها اليوم في مصر ، هي المقابل المطبق أو المفخم للدال ، فالدال صوت ينطق بنفس الطريقة التي ينطق بها صوت الضاد ، مع فارق واحد ،

وهو أن مؤخرة اللسان ترتفع قليلا في اتجاه الطبق عند نطق الضاد ، ولا يحدث مثل ذلك مع الدال. أما الضاد القديمة ، فلا يقابلها شيء من الاصوات ؛ إذ يقول سيبويه (٢:٤٠٦/٢٣) : « ولو لا الاطباق ... لخرجت الضاد من الكلام ؛ لأنه ليس شيء من موضعها غيرها » .

وعلى هذا فالضاد التي ننطقها اليوم ، ليست هي الضاد القديمة التي كانت عند العرب القدماء ، وإنما هي تطور عنها . ولنسمع في هذه الضاد القديمة آراء بعض العلماء :

يقول المستشرق « شاده [١] » عن سيبويه إنه « عدّ من الرخوة حرفاً خرج منها بعده في كثير من اللهجات العربية وهو الضاد ، فإنها ليست الآن من الرخوة إلا من لفظ من قال : ضرب مثلاً بضاد جانبية المخرج . وأما في النطق المعتاد في مصر ، يعني بضاد مقدمة المخرج ، فقد لحقت فيه الشديدة » .

ويقول المستشرق « برجشتراسر [٢] » : « أما الضاد فهي الآن شديدة عند أكثر اهل المدن ، وهي رخوة (عند القدماء) كما هي الآن عند اكثر البدو ، ومع ذلك فليس لفظها البدوي الحاضر نفس لفظها العتيق ؛ لأن مخرج الضاد (عند القدماء) من حافة اللسان . ومن القدماء من يقول : من جانبه الأيسر ، ومنهم من يقول : من الأيمن ، ومنهم من يقول : من كليهما ؛ فمخرجها قريب من مخرج اللام من بعض الوجوه . والفرق بينهما هو أن الضاد من الحروف المطبقة كالصاد وأنها من ذوات الدويّ ، واللام غير مطبقة صوتية محضة ؛ فالضاد العتيقة حرف غريب جداً غير موجود ـ حسبما أعرف ـ في لغة من اللغات إلا العربية ، ولذلك كانوا يكنون عن العرب بالناطقين بالضاد . ويغلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لايوجد الآن عند أحد من العرب ، غير أن للضاد نطقاً قريباً منه جداً عند أهل حضرموت ، وهو كاللام المطبقة . ويظهر أن الاندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك ؛ ولذلك استبدلها الأسبان بصوت ld في الكلمات العربية المستعارة في لغتهم ،

(١) في مقاله : « علم الاصوات عند سيبويه وعندنا » ص ٩ .

(٢) في كتابه : « التطور النحوي » ص ١٠ .

مثال ذلك ان كلمة : « القاضي » صارت في الاسبانية : alcalde ومما يدل ايضاً على ان الضاد كانت في نطقها قريبة من اللام ان الزمخشري ذكر في كتابه « المفصل » ان بعض العرب كانت تقول : « الطجع » بدل : « اضطجع » . ونشأ نطق الضاد عند البدو من نطقها العتيق بتغيير مخرجها من حافة اللسان إلى طرفه . ونطقها عند اهل المدن نشأ من هذا النطق البدوي ، باعتماد طرف اللسان على الفك الأعلى ، بدل تقريبه منه فقط ، فصار الحرف بذلك في نطقه شديداً ، بعد أن كان رخواً » .

ويرى « كانتينو [1] » ان « النطق القديم كان (ظْ لْ) أي ظاء ذات زائدة انحرافية ، أي بتقريب طرف اللسان من الثنايا ، كما في النطق بالظاء ، وبأن يجري النفس لا من طرف اللسان فقط ، بل ومن جانبيه أيضاً » .

كما يقول المستشرق « هنري فليش [2] » : « ولقد كان العرب يتباهون بنطقهم الخاص لصوت الضاد ، وهو عبارة عن صوت مفخم ، يحتمل انه كان ظاء جانبية ، اي انه كان يجمع الظاء واللام في ظاهرة واحدة . وقد اختفى هذا الصوت ، فلم يعد يسمع في العالم العربي ، واصبح بصفة عامة إما صوتاً انفجارياً ، هو مطبق الدال ، وإما صوتاً أسنانياً هو الظاء » .

وأخيراً يرى الدكتور ابراهيم أنيس [3] انه « يستدل من وصف القدماء لهذا الصوت على ان الضاد كما وصفها الخليل ومن نحوا نحوه ، تخالف تلك الضاد التي ننطق بها الآن ، فالضاد الاصلية ، كما وصفت في كتب القراءات ، أقل شدة مما ننطق بها الآن ، إذ معها ينفصل العضوان المكونان للنطق انفصالا بطيئاً نسبياً ، ترتب عليه ان حل محل الانفجار الفجائي انفجار بطيء ، نلحظ معه مرحلة انتقال بين هذا النوع من الاصوات وما يليه من صوت لين، فاذا نطق بالضاد القديمة وقد وليتها فتحة مثلا ، احسسنا بمرحلة انتقال بين

(١) في كتابه : « دروس في علم اصوات العربية » ص ٨٦ .

(٢) في كتابه : « العربية الفصحى » ص ٣٧ .

(٣) في كتابه : « الاصوات اللغوية » ص ٤٩ .

الصوتين ، تميز فيها كل منهما تميزاً كاملاً . هذا الى ان الضاد ، كما وصفها القدماء ، كانت تتكون بمرور الهواء بالحنجرة ، فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم، غير ان مجراه في الفم جانبي ـ عن يسار الفم عند اكثر الرواة ، او عن يمينه عند بعضهم ، او من كلا الجانبين ، كما يستفاد من كلام سيبويه ... والذي نستطيع تأكيده هنا ، هو أن الضاد القديمة قد أصابها بعض التطور حتى صارت إلى ما نعهده لها من نطق في مصر .. ولا يزال العراقيون حتى الآن وبعض البدو ينطقون بنوع من الضاد يشبه إلى حدّ ما الظاء ، كما يشبه الى حد كبير ذلك الوصف الذي روى لنا عن الضاد القديمة . والذين مارسوا التعليم في بلاد العراق يذكرون كيف يخلط التلاميذ هناك بين الظاء والضاد . والضاد القديمة ـ كما أتخيلها ـ يمكن النطق بها بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة ثم ينتهي نطقه بالظاء ، فهي إذن مرحلة وسطى ، فيها شيء من شدة الضاد الحديثة ، وشيء من رخاوة الظاء العربية ؛ ولذلك كان يعدها القدماء من الاصوات الرخوة » .

هذه هي بعض الآراء التي قيلت في الضاد العربية القديمة . ويبدو من وصف القدماء لها ، ومن تطورها في بعض اللهجـات واللغات ، أنها كانت لاما مطبقـة ، كما يقول برجشتراسر ، كما يبدو أنه كان فيها بعض الشبه بالظاء والضاد الحديثة ، وإلا ما تطورت في اتجاه كل واحد من هذين الصوتين في اللهجات العربية الحديثة .

اما ما ذهب اليه الدكتور كمال بشـر (١) من احتمال أن يكون القدماء قد « وصفوا الضاد المولدة ، لا الضاد العربية الاصلية » ، وترجيحه هذا الاحتمال بقوله : « ربما لكثرة استعمال هذا الصوت المولد وشيوعه على الألسنة عند قيام حركة التأليف اللغوي » ـ فقد بنى مذهبه هذا على نص مصحف في الترجمة العربية لكتاب « العربية » للمستشرق يوهان فك (ص ١٠٢/٩) وهو : « كما يتعلق بهذا أيضاً تغيير حرف الضاد ، وهذا الصوت الذي هو في أصله الحرف المطبق القسيم للدال ، خاص بالعربية » . هذا النص بهذه الصورة يفهم منه

(١) في كتابه : « علم اللغة العام : الاصوات » ص ١٢٧ .

ان الضاد في الاصل هي النظير المفخم للدال ، اي انها حينئذ ـ كما يقول الدكتور بشـــر «كانت تشبه ضادنا الحالية أو هي هي » . غير أن الترجمة العربية بها تصحيف في هـــذا الموضع للأسف ، وصوابه كما في الاصل الالماني (Arabiya, S. 58,35) : « الحرف المطبق القسيم للذال » . وقد حدث مثل هـــذا التصحيف مرة اخرى في الترجمة العربية (٣ ١/٢) : « كالدال المفخمة » . وصوابه كما في الاصل الالماني (Arabiya, S, 58, 35) « كالذال المفخمة » .

واذا نظرنا الى اللغات السامية ، وجدنا ان الضاد العربية تقابل صاداً في اللغة الاكادية والاوجاريتية والعبرية ؛ فكلمة « ارض » في العربية ، تقابل كلمة ersetu في الأكادية ، وكلمة ars’ في الاوجاريتية ، وكلمة eres’ في العبرية . كما تقابل الضاد غينا في السريانية مثل ar‘á’ بمعنى « ارض » كذلك . ولم تبق ضاداً إلا في العربيـة الشمالية والعربيـة الجنوبية (السبئية والمعينيـــة) والحبشية ، مثل كلمة rd’ في العربية الجنوبيـــة بمعنى « أرض » كذلك [٢] . وكلمة : dahey بمعنى « الشمس ـ الضحى » في الحبشية [٣] .

وتقول « مارية هفنر [٤] » : ان هذه الضاد احتكاكية في الحبشية ، ولابد أنها كانت كذلك في العربية الجنوبية . والدليل على صحة ذلك ورود بعض الكلمات التى كتبت بالضاد في بعض النقوش ، وبالزاي في بعضها الآخر ، فلو كانت هذه الضاد انفجارية ، لما التبست على الكاتب إطلاقاً ، فدلت كتابته اياها بصورة الزاي على أنها كانت احتكاكية .

واذا كانت الضاد بهذه الصورة توجد في بعض اللغات السامية كما رأينا ، كان من التجوز قول ابن جنى : « وأعلم ان الضاد للعرب خاصة ، ولا يوجد من كلام العجم إلا في القليل [٥] »

---

(٢) احياناً تقابل الضاد ظاء في الاوجاريتية كذلك . انظر كتاب « جوردون » C. H. Gordon, Ugaritic Manual ص ٢٣ .

(٣) انظر كتاب « موسكاتى » Moscati, An Jntroduction ص ٢٨ وكتاب « بروكلمان » C. Broekelmann, Grundriss ١/١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٤) انظر كتاب « بريتوريوس » F. Praetorius, Aethiopische Grammatik ص ٨

(١) سر صناعة الاعراب ١/٢٢٢ .

أما السر في اطلاق « لغة الضاد » على اللغة العربية ، فانه يمكن لي ان هذه الضاد كانت مشكلة عويصة بالنسبة لمن يريد أن يتعلم العربية من الأعاجم . ويقول الدكتور ابراهيم أنيس : « يظهر ان الضاد القديمة كانت عصية النطق على أهالي الاقطار التي فتحها العرب ، او حتى على بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة ، مما يفسر تلك التسمية القديمة « لغة الضاد » ، كما يظهر ان النطق القديم بالضاد ، كان احدى خصائص لهجة قريش [1] » .

ويقول ابن الجزري [2] : « والضاد انفرد بالاستطالة ، وليس في الحروب ما يعسر على اللسان مثله ، فان ألسنة الناس فيه مختلفة ، وقل من يحسنه ، فمنهم من يخرجه ظاء ، ومنهم من يمزجه بالذال ، ومنهم من يجعله لاما مفخمة ، ومنهم من يشمه الزاي . كل ذلك لا يجوز » .

وكل هذا الذي حكاه ابن الجزري ، روت لنا كتب الإبدال طرفاً منه ؛ فمن امثلة الضاد والظاء ما حكاه ابو الطيب اللغوي في كتابه الابدال (٢/٢٧٠) من قوله : « الحَضَل والحَظَل : فساد يلحق اصول سعف النخل » . ومن امثلة الضاد والذال (الإبدال٢/١٦): « ما ينبِض له عِرْقٌ نَبضاً ، وما ينبِذ له عرق نبذاً . وقد نَبَض العرق ينبِض ، ونبذ ينبِذ : إذا ضرب » ومن امثلة الضاد واللام (الإبدال ٢/٢٧٧) : « تقيَّض فلان أباه وتقيَّله تقيَضاً وتقيّلا : اذا نزع اليه في الشبه » . ومن امثلة الضاد والزاي (الإبدال ٢/١٣٨) : « انا على اوفاز وعلى اوفاض : اي على عجلة » .

ويحدثنا اللغويون عما سموه « بالضاد الضعيفة » وهو مظهر من مظاهر عدم تمكن بعض العرب القدماء من نطق الضاد التي عرفنا وصفها من قبل ؛ يقول ابن يعيش : « والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم ، فربما أخرجوها طاء ، وذلك أنهم يخرجونها من

---

(١) الاصوات اللغوية ص ٥٠ .

(٢) النشر في القراءات العشر ١/٢١٩ .

طرف اللسان واطراف الثنايا ، وربما راموا إخراجها من مخرجها ، فلم يتأت لهم فخرجت بين الضاد والظاء [1] » .

وقد وصلت الينا بعض الاخبار التي تؤكد لنا ان الناس كانوا يخلطون الضاد بالظاء في بعض الاحيان ؛ فقد روى أبو علي القالي ان رجلا « قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين أيضحى بضبي ؟ قال : وما عليك لو قلت : بظبي ؟! قال : انها لغة . قال : انقطع العتاب ولا يضحى بشيء من الوحش [2] » . كما سجل الجاحظ مثل هذا الخلط بين الضاد والظاء في كتابه البيان والتبيين (٢/٢١١) : « فقال : « وزعم يزيد مولى ابن عون ، قال : كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء ، فكان اذا دعاها قال : ياضمياء بالضاد ، فقال ابن المقفع : قل ياظمياء ، فناداها : ياضمياء ، فلما غيّر عليه ابن المقفع مرتين او ثلاثاً ، قال له : هي جاريتي او جاريتك ؟ » .

ويذهب المستشرق « برجشتراسر » الى « ان نطق الظاء كان قريباً من نطق الضاد وكثيراً تطابقتا وتبادلتا في تاريخ اللغة العربية . واقدم مثل لذلك مأخوذ من القرآن الكريم ، وهو (الضنين) في سورة التكوير ، فقد قرأها كثيرون بالظاء مكان الضاد التي رسمت بها في كل المصاحف . وممن قرأها بالظاء ابن كثير وابو عمرو والكسائي ، وكذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) كما قال مكى في كتاب الكشف [3] » .

ومما لاشك فيه ان العرب القدامى في البيئة القرشية ، كانوا يفرقون بين الضاد والظاء ، بدليل ان الكتابة العربية التي شاعت اول ما شاعت في قريش [4] ، فرقت بين الصوتين في

---

(١) شرح المفصل ١٠/١٢٧ وانظر كلاماً غير مفهوم عن هذه الضاد الضعيفة في كتاب سيبويه ٢ : ٤٠٤/٢١ .

(٢) ذيل الامالي والنوادر للقالي ١٤٢ وانظر الخبر برواية اخرى في المزهر للسيوطي ١/٥٦٢ـ٥٦٣ .

(٣) التطور النحوي ص ١١ ويرى المفسرون أن المعنى مختلف على القراءتين ، فهي بالضاد بمعنى « بخيل » وبالظاء بمعنى « متهم » . انظر تفسير القرطبي ١٩/٢٤٣ وقد ذهب الى مثل هذا أبو البركات ابن الانباري في كتابه « زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء » الذي حققناه وسيظهر قريباً .

(٤) انظر مقالتنا بعنوان : « الخط العربي وأثره في نظرة اللغويين القدامى الى اصوات اللغة » في مجلة « المجلة » عدد يولية ١٩٦٨ ص ٥٩ .

الصورة الموضوعة لكل واحد منهما . ويقول الدكتور ابراهيم انيس [1] : « لا يخالجنا الآن ادنى شك في ان العرب القدماء كانوا في نطقهم يميزون هذين الصوتين تمييزاً واضحاً ، ولكنهم فيما يبدو كانوا فريقين : فريق يمثل الكثرة الغالبة ، وهؤلاء هم الذين كانوا ينطقون بهما ذلك النطق الذي وصفه سيبويه . اما الفريق الآخر فكان يخلط بين الصوتين .. وهذا الخلط الذي وقع في بعض اللهجات المغمورة ، انما كان سببه ان هذين الصوتين – على حسب وصف سيبويه لهما – يشتركان في بعض النواحي الصوتية ، او بعبارة اخرى كان وقعهما في الآذان متشابهاً . ولعل مما يستأنس به لهذا التشابه بين الصوتين في النطق القديم ، وقوعهما في فاصلتين متواليتين من فواصل القرآن الكريم [2] ، مثل ما جاء في سورة فصلت (٤١/٥٠ – ٥١) قال تعالى : « فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، واذا انعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه واذا مسّه الشر فذو دعاء عريض » .

ولعل هذا الخلط بين صوتي الضاد والظاء كان قد شاع في القرن الثالث الهجري، وكان هو السر فيما ذهب اليه ابوعبد الله محمد بن زياد الاعرابي اللغوي المشهور (توفى سنة ٢٣١هـ) من انه يجوز عند العرب ان يعاقبوا بين الضاد والظاء ، فقد روى ابن خلكان [3] ان ابن الاعرابي كان يقول : « جائز في كلام العرب ان يعاقبوا بين الضاد والظاء ، فلا يخطيء من يجعل هذه في موضع هذه . وينشد :

إلى الله أشكو من خليل أوده ثلاث خلال كلها لي غائض

بالضاد (بدل غائظ) ، ويقول : هكذا سمعته من فصحاء العرب » .

---

(١) في مقالته : « معنى القول المأثور لغة الضاد » ص ١١٨ – ١١٩ .

(٢) يرى الدكتور ابراهيم أنيس ان الانسجام الموسيقي بين فواصل كثير من الآيات القرآنية يهدينا الى النطق الاصلي لبعض اصوات اللغة وقت نزول القرآن . انظر مقاله : « على هدى الفواصل القرآنية » في مجموعة البحوث والمحاضرات لمجمع اللغة العربية عام ١٩٦١ – ١٩٦٢ ص ١٠٧ – ١١٨ .

(٣) وفيات الاعيان ٤٣٣/٣ وانظر كذلك طبقات الزبيدي ٢١٥ .

ويزعم ابن جني أن ذلك ليس من باب المعاقبة ، وإنما هى مادة أخرى ، فيقول : «وأما قول الشاعر :

إلى الله أشكو من خليل أوده ثلاث خصال كلها لي غائض

فقالوا : أراد « غائظ » فأبدل الظاء ضاداً . ويجوز عندي أن يكون غائض غير بدل ، ولكنه من غاضه : أى نقصه ، فيكون معناه : أي ينقصني ويتهضمني » .

ولقد كانت محاولات بعض من ألّف في موضوع الضاد والظاء من اللغويين العرب ، منحصرة أحيانا في تنبيه الكتاب حتى لا يخلطوا الضاد بالظاء في خطوطهم متأثرين في ذلك بنطقهم الذي كان من العسير إصلاحه ، فنحن نرى مثلا الزنجاني (انظر فيما يلي حديثنا عن تُراث الضاد والظاء) يقول : « هذا كتاب معرفة ما يكتب بالضاد والظاء معا والفرق بينهما في الخط والهجاء ، إذا كانا على بناء واحد وصورة واحدة في اللفظ » كما يقول الحريري: « ما اشتبه لفظه واختلف كتابه لاختلاف معناه » . كما تذكر المصادر عن القفطي أنه ألف « كتابا في الضاد والظاء ، وهو ما اشتبه في اللفظ ، واختلف في المعنى والخط » .

ولم يحاول منهم إلا أبو بكر الصدفي أن يفرق بوضوح بين نطق الضاد والظاء حين قال : « ... لتستدل به على بعض ما التبس على بعض المسلمين بالفرق بينهما من إبانة الظاء باظهار طرف اللسان في النطق بها ، ورفعك رأسها عند كتابها ، وضم الاسنان على الضاد ، وميلك باللسان إلى الاضراس من ناحية الشمال ، فيفرق بينهما في خطهما » .

ونحن نرى أثر هذا الخلط بين الضاد والظاء في بعض البلاد العربية في أيامنا هذه ، فقد سبق أن أوردنا ما حكاه الدكتور أنيس عن نطق العراقيين للضاد نطقاً مشابها لنطق الظاء . وليس هذا الأمر خاصاً بالعراقيين فحسب ، بل إن أهل تونس يخلطون في أيامنا هذه بين الضاد والظاء ، فينطقونهما قريبين من الظاء ، وكان زميل تونسي بجامعة ميونخ يسألنا إن كانت هذه الكلمة أو تلك تكتب بالظاء المشالة أو غير المشالة ! وهو يقصد بالمشالة التي

فوقها ألف ، وهى الظاء المعروفة ، وبغير المشالة : الخالية من هذه الألف في الخط ، وهى الضاد المعروفة .

كما يقول « كانتينو » [٢] : « وقد صارت الضاد ظاء في الألسن العربية الدارجة العصرية عادة واستوت تماما في الظاءات الأصلية في اللغة ، فنشأ عن ذلك كيفيات مختلفة في نطق الضاد مماثلة لمختلف كيفيات نطق الظاء في العالم الناطق بالعربية ، فتنطق في اللهجات المغربية ظاء ودالا مضخمة وطاء ، نحو : ظْرَبْ وضْرَبْ وطْرَبْ ، في : ضَرَبَ » . وفي كلامه هذا تعميم لا يصح ، وإن كان مثاله مأخوذاً من اللهجات المغربية . غير أنه يعود فيقول : « وأكثر أنواع نطق الضاد في الفصحى شيوعاً هو نطقها كالظاء ، إذا كان في لهجة المتكلم حروف ما بين الأسنان (الذال والثاء والظاء) ، وكالدال المضخمة إذا انعدمت من لهجته تلك الحروف » .

أما الضاد القديمة فقد عرفنا من قبل أن هناك نطقاً يشبهه عند أهل حضرموت ، وهو كاللام المطبقة ، فيما ذكره المستشرق « برجشتراسر » . ويضيف الدكتور خليل نامي إلى ذلك أن « هذا النطق موجود أيضاً في لهجات منطقة ظفار كالمهرية والشحرية ، كما هو موجود أيضاً فى منطقة دثينة بجنوب بلاد العرب ، وهو موجود أيضاً في لهجات الجزيرة بالسودان » [٣] .

ونختم هذا البحث بمناقشة الحديث الذي ينسب إلى النبي ﷺ أنه : « أنا أفصح من نطق بالضاد » ، فنقول : لم يرو هذا الحديث في كتب الحديث الصحيحة . وقال عنه ابن الجزري [٤] : « والحديث المشهور على الألسنة : أنا أفصح من نطق بالضاد ، لا أصل له ،

---

(١) سر صناعة الاعراب ص ٢٢٢

(٢) في كتابه : « دروس في علم أصوات العربية » ص ٨٧

(٣) انظر مقالة الدكتور خليل نامي : « حرف الضاد وكثرة مخارجه في اللغة العربية » في مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ــ المجلد ٢١ العدد الأول ــ مايو سنة ١٩٥٩ ص ٦٢ . وانظر كذلك « دروس في علم أصوات العربية » لكانتينو ص ٨٧

(٤) النشر في القراءات العشر ١ / ٢١٩

ولا يصح ».

وقد رواه ابن هشام في مغني اللبيب (١/١١٤) : « أنا أفصح من نطق بالضاد، بيد أني من قريش، واسترضعت في بني سعد بن بكر» وقال عنه صاحب حاشية الأمير(١/٩٧): « والحديث غريب لا يعرف له سند ».

وفي صبح الأعشى (١ : ٢٠٢ / ٧) : « والفصاحة والبلاغة إذا طلبت غايتها، فانها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامع الكلم، وقال : أنا أفصح من نطق الضاد ».

وفي المزهر للسيوطي (١ : ٢٠٩ / ٣) : « قال رسول الله ﷺ : أنا أفصح العرب رواه أصحاب الغريب، ورووه أيضاً بلفظ أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش ».

ويبدو أن هذا الحديث قد غيرت الفاظه بعد أن شاعت تسمية اللغة العربية « بلغة الضاد » فقد وجدت في سيرة ابن هشام (١ / ١٦٧) قوله : « قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر» ورواه ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (١/١٧٧) بلفظ : « أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش ». كما رواه السيوطي في الجامع الصغير (١ : ١٠٧ / ١٢) : أنا أعرب العرب ولدتني قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر ».

* * *

تراث الضاد والظاء

ألف كثير من اللغويين العرب في موضوع الضاد والظاء، وقد ضاعت بعض هذه المؤلفات ولم يبق لنا منها إلا اسمها، غير أنه قد سلم لنا من عواد الزمن الكثير منها. وفيما يلي نحصي ما نعلمه من هذه المؤلفات، وندل على المطبوع والمخطوط منها إن وجد :

١ ـ أبو بكر القيرواني، أحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم اللؤلؤي النحوي (توفى سنة ٣١٨ هـ. انظر ترجمته في بغية الوعاة ١ / ٢٩٣) : الضاد والظاء : ذكره الزبيدي في طبقاته ٢٦٦ فقال : « وألف كتابا في الضاد والظاء حسنه وبينه »، كما ذكره السيوطي في بغية

الوعاة ١ / ٢٩٣ والبغدادي في هدية العارفين ١ / ولم يذكروا له غيره .

٢ ـ أبو الفهد النحوي البصري (تلميذ أبي بكر بن الخيـاط ، المتوفى سنة ٣٢٠ هـ ، والذي كان من أصحاب المبرد . انظر شيئاً من أخباره في الفهرست ١٣٢ وطبقات الزبيدي ١٢٩ وبغية الوعاة ٢ / ٢٤٩) : الظاء والضاد والذال والسين والصاد : ذكره ابن خـير في فهرسته ٣٦٣

٣ ـ أبو عمر الزاهد ، محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المعروف بغلام ثعلب (توفى سنة ٣٤٥ هـ . انظر ترجمتـــه في إنباه الرواة ٣ / ١٧١) : الفرق بين الضاد والظاء : ذكر بروكلمان GAL,S I 183 أن منه مخطوطة في مكتبة لالى برقم ٢١٤١ وانظر كذلك دفتر كتبخانة لالى (المطبوع سنة ١٣١١ هـ) ص ٢٦١

٤ ـ الصاحب بن عباد ، أبو القاسم إسماعيل (توفى سنة ٣٨٥ هـ . انظر العبر للذهبي ٣ / ١٨) : الفرق بين الضاد والظاء : لم يذكر هذا الـكتاب أحد ممن ترجموا للصاحب بن عباد . ومنه مخطوطة بمكتبة الفاتح باستانبول رقم ٥٤١٣ ومصورة عنها بمعهد المخطوطات ١٩٤ لغة .

وقد نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين ، ببغداد سنة ١٩٥٨ عن مصورة لهذه النسخة.

٥ ـ أبو الفتح المصري ، أحمد بن مطرف بن إسحاق القاضي (كان في الدولة المصرية في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي ٣٨٦ ـ ٤١١ ومات بعده في سنة ٤١٣ هـ . انظر ترجمته في معجم الأدباء ٥ / ٦٣ وهدية العارفين ١ / ٧٢) : رسالة في الضاد والظاء : ذكرها ياقوت في معجم الأدباء ٥ / ٦٣ وقال إنه « كتب بهـــا إلى الشريف أبي الحسن محمد بن القاسم الحسيني عامل تنيس » ، كما ذكرت في بغية الوعاة ١ / ٣٩١ وهدية العارفين ١ / ٧٣

٦ ـ أبو عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيرواني (توفى سنة ٤١٢ هـ . انظر ترجمته في بغية الوعاة ١ / ٧١) : الضاد والظاء : ذكر في بغية الوعاة ١ / ٧١ وكشف الظنون ١٥٣٤ وهدية العـارفين ٢ / ٦١ وقال عنه في معجم الأدباء ١٨ / ١٠٩ إنه « مجد » . وسمـاه ابن

خير في فهرسته ٣٦٢ « كتاب الظاء » ، وذكر أنه في ثلاثة أجزاء ، وتحدث عن الطريق الذي رواه به فقال : « كتاب الظاء من تأليف أبي عبدالله محمد بن جعفر النحوي المعروف بالقزاز ... في ثلاثة أجزاء ، وكتاب الحروف في النحو من تأليفه أيضاً ، حدثني بهما أبو محمد بن عتاب رحمه الله ، عن أبي محمد مكي بن أبي طالب المقرىء ، عن أبي عبدالله محمد بن جعفر النحوي مؤلفهما رحمه الله . قال أبو محمد مكي في برنامجه : سمعت عليه كتاب الظاء من تأليفه في ثلاثة أجزاء » .

٧ ـ أبو القاسم مُرَجَّى بن كذثر المعري المقرىء النحوي (كان حياً قبل سنة ٤٤٩ هـ انظر ترجمته في معجم المؤلفين ١٢/٣١٧) : الضاد والظاء : ذكره في معجم الادباء ١٩/١٤٦ وبغية الوعاة ٢ / ٢٨٣ ومعجم المؤلفين ١٢ / ٢١٧ وهدية العارفين ٢ / ٤٢٦

٨ ـ أبو الحسن علي بن أبي الفرج بن احمد القيسي الصقلي (كان قاضياً لمكة . انظر اللباب لابن الأثير ٢ / ٥٨ كما روى عن أبي ذر الأنصاري المتوفى سنة ٤٣٤ هـ . انظر العبر للذهبي ٣/٣١٤) : الفرق بين الضاد والظاء : منه مخطوط بالمتحف العراقي ببغداد رقم ١٠٦٣ في مجموعة . ويحققه الدكتور محسن جمال الدين (انظر المخطوطات اللغوية في مكتبة المتحف العراقي ٥٨ والمباحث اللغوية ٧٣) .

٩ ـ أبو القاسم سعد بن علي بن محمد الزنجاني (توفي بعد سنة ٤٧٠ هـ انظر ترجمته في الأنساب للسمعاني (٦ / ٣٢٥) : معرفة ما يكتب بالضاد والظاء : منه نسخة مخطوطة في المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٢ لغة ، تقع في ١٤ صفحة من القطع الصغير ، مكتوبة بخط تعليق ، أولها بعد إسناد الرواية : « أنبأنا أبو القاسم سعد بن علي بن محمد الزنجاني ، قال : هذا كتاب معرفة ما يكتب بالضاد والظاء معاً ، والفرق بينهما في الخط والهجاء ، إذا كانا على بناء واحد وصورة واحدة في اللفظ ، ولكل واحد منهما معنى يخالف معنى صاحبه في كلام العرب ، وكانا يشتبهان على من لا يعلم ، فيظنهما بمعنى واحد ، فلا يفرق بينهما وإنما ينبغي للكاتب أن يعرف معنى كل واحد منهما ، فيخالف

بينهما في الخط لاختلاف معناهما في اللفظ . وقد فسرنا كل واحد منهما ... الخ » .

وقد عالج الزنجاني في هذا الكتاب ٢٩ كلمة بالضاد وما يقابلها بالظاء . واول هذه الكلمات : (العض والعظ) وآخرها : (القريض والقريظ) .

ومن هذا الكتاب نسخة أخرى في ثلاث صفحات ينقص من آخرها كلمات :(التقريض والتقريظ ، والقريض والقريظ) برقم ٤٧٠١ هـ في دار الكتب المصرية ، وهي نسخة مصور ملحقة بكتاب ديوان الأدب للفارابي .

١٠ ـ أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري (توفى سنة ٥١٦ هـ . انظر ترجمته في نزهة الألباء ٣٧٩) : الفرق بين الضاد والظاء : منه نسخة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٣ لغة ، كتبت سنة ١٣٠٦ هـ ، تقع في ٩ صفحات من القطع الصغير ، مكتوبة بخط نسخي رديء . أولها : « بسم الله الرحمن الرحيم . الفرق بين الضاد والظاء ، إملاء الإمام أبي محمد القاسم بن علي الحريري رحمه الله تعالى . لما كان الفرق بين الضاد والظاء مما لا يستغني الكاتب عن معرفته ، ولا يعذر في الجهالة . بحقيقته ، لم أجد طريقاً في إيضاحه خيراً من اثبات ما يكتب بالظاء ، ليعرف به أن ما عداه يكتب بالضاد . وقد رتبته على حسب ما جاء منه في حروف المعجم ، وشفعته بإثبات ما اشتبه لفظه واختلف كتابه ، لاختلاف معناه ، ولم يشذ من حصر الأمر عني إلا التلفظ من وحشي اللغة ، وبالله التوفيق » .

وآخرها : « والظراب اسم الهضاب ، يكتب بالظاء . والله أعلم بالصواب ... » .

ومن الكتاب نسخة أخرى في برلين (أهلورت ٧٠٢٢) كتبت حوالي سنة ٨٨٠ هـ . نظروا بروكلمان GAL I 277 .

هذا وقد نظم الحريري قصيدة في الظاءات ، وضمنها المقامة السادسة والأربعين ، وهي المقامة الحلبية ، وتقع في ١٩ بيتاً .

١١ ـ أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي (توفى سنة ٥٢١ هـ . انظر ترجمته

في وفيات الأعيـان ٢ / ٢٨٢) : الفرق بين الأحرف الخمسة الظـاء والضاد والذال والصاد والسين : ذكر هذا الكتاب ابن خير في فهرسته ٣٦٣ فقال : « كتاب الفرق بين الحروف الخمسة الظاء والضاد والذال والصاد والسين . تأليف أبي محمد بن السيد البطليوسي ، حدثني به الشيخ أبو الحسين عبدالملك بن محمد بن هشام القيسي رحمه الله ، عن أبي محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي مؤلفه » كما ذكر في وفيات الأعيان ٢ / ٢٨٢ وهدية العـارفين ١ / ٤٥٤

ومنه مخطوطة بمكتبة راغب باشا باستنبول رقم ١٤٣١ (انظر بروكلمان GALS I 758) ومنها مصورة بمعهد المخطوطات رقم ١٢٨ لغة ، وهى مكتوبة سنة ١١٠٦ هـ وتقع في ١٣٧ ورقة من القطع المتوسط ، وخطها نسخي مشكول وأولها : « بسم الله الرحمن الرحيم . قال عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي رحمه الله : الحمد لله الذي باسمه يبدأ الذكر ويختم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . هـــذا كتاب قصدت فيه ذكر الفرق بين الاحرف الخمسة التي يغلط فيها كثير من خواص الناس فضلا عن عوامهم ، وهى الظـــاء والضاد والذال والصاد والسين ... ووجدت لبعضه قيـاساً يعين على ضبطه فنبهت عليه ، وأما أكثره فلا قياس له ، وإنما يضبط بالحفظ ... » . وآخرهـا : « والسلسبيل عين في الجنة انتهى ... » .

ومن الكتاب اقتباسات في المزهر للسيوطي ١ / ٤٦٩ ، ١ / ٥٦٢ ، ٢ / ٩٤

١٢ ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد المعروف بابن حميدة النحوي (توفى سنة ٥٥٠ هـ انظر ترجمته في بغية الوعاة ١ / ١٧٣) : الفرق بين الضاد والظاء : ذكر في معجـــم الأدباء ١٨ / ٢٥٢ وبغية الوعاة ١ / ١٧٣ وهدية العارفين ٢ / ٩٢ « كتاب الظاء والضاد » . وفي كشف الظنون ١٤٣٥ في حرف الطاء المهملة أن له « كتاب الطاء » !

١٣ ـ أبو الفضل يحيى بن سلامة الحصكفي (توفى سنة ٥٥١ هـ . انظر ترجمته في وفيات الاعيان ٥ / ٢٥١) : ما يقرأ بالضاد المعجمة : منه مخطوطـــة بالمكتبة التيمورية بدار

الكتب المصرية برقم ٣٢٧ لغة في مجموع بخط أحمد تيمور باشا كتبه سنة ١٣٢٢ هـ (ص ٢٦ ـ ٣٦) . وهو عبار عن قصيدة في ٦٧ بيتاً تجمع الكلمات التي فيها حرف الضاد . وأول الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . قال الشيخ العالم العلامة البحر الفهامة سيدنا ومولانا الشيخ أبو سالم يحيي بن سلامة الحصكفي بآمد سنة سبع وخمسمائة : هذه قصيدة جمعت فيها أكثر ما نطق الناس من حروف الضاد الجارية في اللغة العربية ، وأخللت بحروف قلما تستعمل . وقصدي أن يعرف المتكلم أن ما كان مذكوراً فهو بالضاد ، وما ليس مذكوراً فيها فهو بالظاء . والله المسئول يوفقنا نعود إلى طاعته ونذود عن معصيته

خذ من الضاد ما تداوله النا س وما لا يكون عنه اعتياض »

وآخره :

« وافترضها ستين بيتاً تليها سبعة وافتراضها افتراض

تمت القصيدة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ... » .

ومن الكتاب نسخة أخرى لم أتمكن من رؤيتها ، في المكتبة التيمورية كذلك برقم ٤٦٦ لغة .

١٤ ـ أبو نصر محمد بن أحمد بن الحسين بن محمود الفروخي (توفى سنة ٥٥٧ هـ . انظر ترجمته في فوات الوفيات ٢ / ٣٤٣) : منظومة في الفرق بين الظاء والضاد : منها مخطوطات كثيرة تنسب في بعض الأحيان إلى غير صاحبها ؛ فهي للفروخي في مجموع بالمكتبة التيمورية رقم ٣٢٨ لغة (ص ١٠٠ ـ ١٠٣) وفيه أنه « تعرض في القصيدة لمدح الوزير ابن هبيرة » . وفي ترجمته في فوات الوفيات أنه « كان كاتباً على أعمال السواد من قبل الوزير ابن هبيرة » . كما تنسب للفروخي كذلك في مجموع برقم ٣٢٧ لغة تيمور (ص ٢١ ـ ٢٦) . كما تنسب لمن يسمى الشيخ شحادة في مجموع برقم ٥٣٤ لغة تيمور (ص ٦ ـ ٨) ، وقال عنها أحمد تيمور في أول المجموع إنها للفروخي . وتنسب للشيخ مهذب الدين الخلوي في آخر مخطوط الفاتح ٥٤١٣ (= معهد المخطوطات ٢٦٥ لغة .

ونشرت منسوبة لابن قتيبة في مجلة لغة العرب ، سنة ١٩٢٩ في الجزء السادس من السنة السابعة - يونية (٤٦١ - ٤٦٣) نشرها الدكتور داود الجلبي الموصلي . ولم تنسب في مجموع ٥٤ لغة ش بدار الكتب (ص ٥ - ١٤) وكذلك في ٥١٠ مجاميع طلعت بدار الكتب (ورقة ١٣٨ - ١٣٩) وأولها في جميع هذه المخطوطات :

أفضل ما فاه به الإنسان　　　وخير ما جرى به اللسان

غير أن طولها يتراوح في هذه النسخ من ١٧ بيتاً إلى ٥٨ بيتاً . ومنها ٤٢ بيتاً في مجموعة أوراق دشت في المكتبة الزكية بدار الكتب المصرية برقم ٩٥٥ تبدأ بالبيت الثاني في القصيدة ، مع سقط في سلسلة نسب الفروخي .

١٥ - أبو محمد سعيد بن المبارك ، المعروف بابن الدهان النحوي (توفى سنة ٥٦٩ هـ . انظر ترجمته في بغية الوعاة ١ / ٥٨٧) : الغنية في الضاد والظاء : ذكر في وفيات الأعيان ٢ / ١٢٤ وبغية الوعاة ١ / ٥٨٧ ومعجم الأدباء ١١ / ٢٢١ وكشف الظنون ٢١٢١ وهدية العارفين ١ / ٣٩١

١٦ - أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري (توفى سنة ٥٧٧ هـ . انظر ترجمتنا المفصلة له في مقدمة كتاب البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث) : زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء : وهو مذكور في مصادر كثيرة (انظر مقدمة البلغة ص ٢٦ رقم ٣٧) . ومنه مخطوطة في مجموع بمكتبة أحمد الثالث باستانبول رقم ٢٧٢٩ وقد حققناه عنها ، وسننشره في القريب العاجل إن شاء الله تعالى .

١٧ - محمد بن نشوان بن سعيد بن نشوان الحميري (توفى سنة ٦١٠ هـ . انظر هدية العارفين ٢ / ١٠٩) : الفرق بين الضاد والظاء : نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين ، مع كتاب أبي حيان الآتي بعد ، في مجلد واحد - بغداد ١٩٦١ .

١٨ - أبو القاسم عيسى بن عبد العزيز بن سليمان اللخمي الاسكندراني (توفى سنة ٦٢٩ هـ . انظر ترجمته في هدية العارفين ١/٨٠٨) : المراد في كيفية النطق بالضاد : ذكر

في بغية الوعاة ٢/٢٣٦ وهدية العارفين ١/٨٠٨ .

١٩ ـ أبو الفتوح نصر بن محمد الموصلي (توفى سنة ٦٣٠ هـ . انظر ترجمته في بغية الوعاة ٢/٣١٥) : رسالة في الضاد والظاء : ذكرت في كشف الظنون ٨٧٦ ووصفها السيوطي في بغية الوعاة ٢/٣١٥ بأنها رسالة بديعة .

٢٠ ـ أبو بكر الصدفي ، محمد بن أحمد الصابوني (توفى سنة ٦٣٤ هـ . انظر ترجمته في الأعلام ٦/٢١٥) : معرفة الفرق بين الظاء والضاد : منه مخطوطة في مكتبة الفاتح باستانبول رقم ٥٤١٣ ومصورة عنها بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية رقم ٢٧٥ لغة ، تقع في ٧٠ صفحة من القطع الصغير ، مكتوبة بخط نسخي جميل مشكول . أولها : « بسم الله الرحمن الرحيم . قال أبو بكر الصدفي القروي : أما بعد فانك سألتني أن اشرح لك طرفاً من حروف الظاء والضاد ، لتستدل به على بعض ما التبس على بعض المسلمين بالفرق بينهما من إبانة الظاء باظهار طرف اللسان في النطق بها ، ورفعك رأسها عند كتابها ، وضم الأسنان على الضاد ، وميلك باللسان الى الأضراس من ناحية الشمال ، فيفرق بينهما في خطها فكتبت لك من ذلك أمثلة لتحتذى بها ، واصولا لتقتدى بها باتباع من كتاب الله تعالى وشواهد من الشعر ... » .

وقد عالج الصدفي في هذا الكتاب ٢٧ كلمة بالظاء ، وأخرى مثلها بالضاد . أولها : (العظة والعضة) وآخرها : (الحنظل والحنضل) . وبآخر الكتاب قصيدة الفروخي السابقة ، منسوبة للشيخ مهذب الدين الحلوي في ١٧ بيتاً .

٢١ ـ أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (توفى سنة ٦٤٦ هـ . انظر ترجمته في معجم الأدباء ١٥/١٨٦) : كتاب الضاد والظاء ، وهو ما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى والخط : ذكر في فوات الوفيات ٢/١٩٢ ومعجم الأدباء ١٥/١٨٦ وبغية الوعاة ٢/٢١٣ وكشف الظنون ١٤٣٤ هـ وهدية العارفين ١/٧٠٩ .

٢٢ ـ أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك النحوي صاحب الألفية المشهور

(توفى سـنة ٦٧٢ هـ . انظر ترجمته في بغية الوعاة ١/١٣٠) : نظم ابن مالك ارجوزة وقصيدتين في الضاد والظاء ، كما شرح القصيدتين كذلك . وقد وصل الينا كل ذلك :

أما الأرجوزة فتوجـد كاملة في ١٧٣ بيتاً في مجموعة مخطوطة بمكتبة طلعت بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٥ مجاميع (ص ١٥ــ٢٠) . وأولها :

أقول حامـداً إلـهاً صمدا مصلياً على النبي أحمـدا

ومنها مخطوطتان ناقصتان من الآخر ، إحداهما في مجموع بالمكتبة التيمورية برقم ٢٥٩ مجاميع (ص ١١٣ــ١٢١) والأخرى في مجموع آخر بالمكتبة التيمورية برقم ٥٣٠ لغة (ص ١٨٧ــ١٩٤) .

وأما أولى القصيدتين فمنها مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٥٨٣٠ ، بعنوان : كتاب في الفرق بين الضاد والظاء في ٤٤ صفحة من القطع الصغير بخط نسـخي جميل مضبوط بالشكل . والقصيدة عبارة عن ٧٤ بيتاً مشروحة شرحاً مستفيضاً به روايات عن كثير من العلماء كالليث والأزهري وثعلب وابن دريد وغيرهم ، وبه شواهد كثيرة . وتبدأ القصيدة بقول ابن مالك :

الحمـد لله ماعم الورى بنعمْ وما ارتجى شاكر منه مزيد كرمْ

وأما القصيدة الثانيـة فاسمها : « الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد » . وقال عنها ابن مالك في أولها : « هذه قصيدة تجمع ضوابط مميزة للظاء من الضاد ، بحصر رزقت الإعانة عليه ، وخصصت بالسبق اليه » . وتبدأ بالبيت التالي :

بسبق شين أو الجيم استبانة ظا أو كاف أو لام أيضاً كظ ملتمظا

ومن هـذه القصيدة مخطوطات كثيرة في بلاد العـالم (انظر بروكلمان GAL I 300., S I 526 وزد على ما ذكره نسختين بالمكتبة التيمورية ، الأولى برقم ٤٠٩ لغة ، والأخرى برقم ٣٤٩ مجاميع) .

ومن كتاب « الاعتضاد » اقتباس في المزهر للسيوطي ٢/٢٨٢ــ٢٨٦ وقد أشار الى

الأرجوزة والقصيدتين أحد الشعراء بقوله ، ذاكراً مؤلفات ابن مالك (بغية الوعاة ١/١٣٢) :

وفي الضاد والظا قد أتى بقصيدة ... وأتبعها أخرى بوزنين أصّلا

وبيّن في شرحيهما كل ما غدا ... على الذهن معتاصاً فأصبح مجتلى

وأرجوزة في الظاء والضاد قد حوى ... بها لهما معنى لطيفاً وحصّلا

٢٣ ـ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي (توفي سنة ٧٤٥ هـ . انظر ترجمته في فوات الوفيات ٢/٥٥٥) : الارتضاء في الفرق بين الضاد والظاء : وهو كتاب لخصه أبو حيان من « الاعتضاد » لابن مالك ، ورتبه على ما فيه ظاء من حروف المعجم . وهو مذكور في بغية الوعاة ١/٢٨٢ وفوات الوفيات ٢/٥٦١ وهدية العارفين ٢/١٥٢ ومنه مخطوطة في مجموع بالمكتبة التيمورية رقم ٣٤٩ مجاميع (ص ١٧٤ـ١٩٤) كما نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين مع كتاب محمد بن نشوان الحميري، السابق ـ بغداد ١٩٦١ .

٢٤ ـ عبد الله بن أحمد بن علي الكوفي الهمذاني المعروف بابن الفصيح (توفي سنة ٧٤٥ هـ . انظر ترجمته في بغية الوعاة ٢/٣٢) : قصيدة في الفرق بين ظاءات القرآن وضاداته ، تسمى بعمدة القراء وعدّة الإقراء : منها مخطوطة في مجموع بالمكتبة التيمورية رقم ٣٤٩ مجاميع (ص ١٩٦ـ٢٠٢) مع شرح للمؤلف عليها ، فرغ منه في سنة ٧٣٤ هـ . وأوله : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله على ما أولى من عطائه ... وبعد ، فان الفقير الى الله تعالى عبد الله بن أحمد بن علي الكوفي الهمذاني نظم هذه القصيدة ، للفرق بين ظاءات القرآن المجيد وضاداته وسماها : عمدة القراء وعدّة الإقراء ، فنظر فيها نحارير العلماء ، وأجالوا فيها الافكار ، فوجدوها من أنفس الدرر الأبكار ، وافية بالمراد المطلوب ، كافلة بالنفيس المرغوب ، فاستحسنوها استحسان من خبرها ، واثنوا عليها ثناء من تدبرها ، فأمرني منهم من افترض الله طاعته عليّ ، وضاعف نعمه لديّ ، أن أعلق لها شرحاً يقوم بحلها أحسن القيام ، ويبلغ حافظها غاية المرام ، فلم يسعني

الا قبول أمره المطاع ... » . وأول أبيات القصيدة :

حفظت وعظاً عظيما مظهر الظفر ظعنت يقظان عن ظلم على نظر

ومن الكتاب مخطوطة أخرى في برلين (أهلورت ١٠٣٢٦) . انظر بروكلمان GAL II 465 .

يحيى بن عمر بن محمد بن فهد المكي القرشي (توفي سنة ٨٨٥ هـ . انظر ترجمته في الضوء اللامع ١٠/٢٣٨) ما يكتب بالضاد والظاء مع اختلاف المعنى : منه مخطوطة في مجموع بالمكتبة التيمورية رقم ٢٥٩ مجاميع (ص ٢٩ـ٥٨) مكتوبة بخط رقعة حديث جميل جداً . وقد رتب ابن فهد الكلمات على حروف المعجم . أوله : « باب الألف : الإظراب هو الحسد . والإضراب : الإعراض » . وآخره : « والوضف واحد الأوضاف وهى خيوط تعمل شبه القلاع ، ويرمى فيها بالحجارة ... » .

ومن الكتاب مخطوطتان أخريان في المكتبة التيمورية ، إحداهما في مجموع برقم ٣٢٤ لغة (ص ٢ـ١٦) ، والأخرى في مجموع آخر برقم ٥٣٠ لغة (٢٧٧ـ٢٨٩) .

٢٦ ـ نور الدين علي بن محمد بن علي بن غانم المقدسي المصري (توفي سنة ١٠٠٤ هـ . انظر ترجمته في ريحانة الألباء ٢/٥٢) : بغية المرتاد لتصحيح الضاد : منه مخطوطات في أماكن عدة . انظر بروكلمان GAL II 342., S II 395, 429 وقد ذكر في كشف الظنون ٨٧٦ كما طبع مع كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي (انظر معجم المطبوعات لسركيس ص ١٩٧) .

٢٧ ـ عبد المجيد بن علي بن محمد بن علي الحسنى المناوي (توفي سنة ١١٦٣ هـ . انظر ترجمته في بروكلمان GAL S II 676) : منظومة في الفرق بين الظاء والضاد : منها نسخة ضمن مجموعة بدار الكتب المصرية برقم ٥٢٤ مجاميع ، ولم أتمكن من رؤيتها .

٢٨ ـ أحمد عزت ، مميز قلم تحريرات ولاية بغداد (توفي سنة ١٩٣٦ هـ . انظر المباحث اللغوية ص ٧٢) : فصل القضاء في الفرق بين الضاد والظاء : مطبوع في بغداد سنة

١٣٢٨ هـ . ويقع في ١٩٨ صفحة من القطع الصغير ، عالج فيه مؤلفه نحو ١٨٥٠ كلمة بالضاد أو بالظاء . وقد جعله قسمين : الأول فيما يكتب بالضاد ، والآخر فيما يكتب بالظاء وفسر كل كلمة بالعربية والتركية والفارسية . وهناك شخصان مجهولان هما :

٢٩ ـ أبو الحسن علي بن سالم بن محمد العبادي الشنيني : قصيدة في الظاءات : منه نسخة كتبت في القرن السادس الهجري تقريباً ، في مكتبة برلين (أهلورت ٧٠٢١) . انظر بروكلمان CAL S II 949 .

٣٠ ـ الإمام محمد الخزرجي : منظومة في الفرق بين الظاء والضاد : منها نسخة في مكتبة برلين (أهلورت ٧٠٢٤) . انظر بروكلمان GALS II 923 وهي بلا نسبة في مجموع بالمكتبة التيمورية رقم ٢٩٨ مجاميع (ص ٢٤٥ـ٢٤٩) عبارة عن ٤٣ بيتاً . وتسمى : « المرصاد في ضابط الظاء والضاد » . وأولها :

الحمد لله العظيم الواحد ذي الفضل والإحسان والمحامد

وآخرها :

وأشرقت في فلك نجوم واتسعت في سلك رجوم

رمضان عبد التواب

مصادر البحث

أولا المصادر العربية :

١ ـ الإبدال ، لأبي الطيب اللغوي ـ تحقيق عز الدين التنوخي ـ دمشق ١٩٦٩

٢ ـ الأصوات اللغوية ، للدكتور ابراهيم انيس ـ القاهرة ١٩٦١

٣ ـ الأعلام ، لخير الدين الزركلي ـ القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩

٤ ـ انباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم القاهرة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥

٥ ـ الأنساب ، للسمعاني ـ حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٦٢ وما بعدها

٦ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٦٤ـ١٩٦٥

٧ ـ البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ، لأبي البركات بن الأنباري ـ تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ـ مركز تحقيق التراث بالقاهرة ١٩٧٠

٧ ـ البيان والتبيين ، لأبي عمر الجاحظ ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ القاهرة ١٩٤٨ـ١٩٥٠

٩ ـ التطور النحوي للغة العربية ، للمستشرق الألماني برجشتراسر ـ القاهرة ١٩٢٩

١٠ ـ تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ـ القاهرة ١٩٦٧

١١ ـ الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، للسيوطي ـ القاهرة ١٩٥٤

١٢ ـ حاشية الأمير على كتاب مغني اللبيب ، لابن هشام ـ القاهرة ١٣٢٨ هـ

١٣ ـ حرف الضاد وكثرة مخارجه في اللغة العربية ، للدكتور خليل يحيى نامي ـ مقالة في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ـ المجلد ٢١ العدد الأول ـ مايو سنة ١٩٥٩

١٤ ـ الخط العربي وأثره في نظرة اللغويين القدامى إلى اصوات العلة ـ مقالة للدكتور رمضان عبد التواب ، بمجلة المجلة بالقاهرة ـ يولية ١٩٦٨
١٥ ـ دروس في علم أصوات العربية ، لجان كانتينو ـ ترجمة صالح القرماوي ـ تونس ١٩٦٦
١٦ ـ ذيل الأمالي والنوادر ، للقالي ـ بولاق ١٣٢٤ هـ
١٧ ـ ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا ، لشهاب الدين الخفاجي ـ تحقيق عبد الفتاح الحلو ـ القاهرة ١٩٦٧
١٨ ـ سر صناعة الإعراب ، لابن جني ـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ـ القاهرة ١٩٥٤
١٩ ـ سيرة ابن هشام = السيرة النبوية ، لابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ـ القاهرة ١٩٥٥
٢٠ ـ شرح ابن يعيش للمفصل ـ القاهرة (بلا تاريخ)
٢١ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، للقلقشندي ـ مطبعة دار الكتب المصرية ، بالقاهرة ١٩٢٠ وما بعدها
٢٢ ـ الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، للسخاوي ـ نشر القدسي ـ القاهرة ١٣٥٣
٢٣ ـ طبقات النحويين واللغويين ، للزبيدي ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ٩٥٤
٢٤ ـ العبر في خبر من غبر ، للذهبي ـ تحقيق صلاح الدين المنجد وآخرين ـ الكويت ١٩٦٠
٢٥ ـ العربية ، ليوهان فك ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ـ القاهرة ١٩٥١
٢٦ ـ العربيــة الفصحى ، للأب هنري فليش اليسوعي ـ ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين ـ بيروت ١٩٦٩
٢٧ ـ علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ـ محاضرة للمستشرق الألماني (شاده) ألقاها في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية ، ونشرت بصحيفة الجامعة المصرية ـ السنة الثانية ١٩٣١
٢٨ ـ علم اللغة العام ـ الأصوات ، للدكتور كمال محمد بشر ـ القاهرة ١٩٧٠
٢٩ ـ الفهرست ، لابن النديم ـ القاهرة ١٣٤٨ هـ

٣٠ ـ فهرسة ما رواه عن شيوخه ، لابن خير الإشبيلي ـ القاهرة ١٩٦٣
٣١ ـ فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٥١
٣٢ ـ الكتاب ، لسيبويه ـ بولاق ١٣١٦ ـ ١٣١٧ هـ
٣٣ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لحاجي خليفة ـ استانبول ١٩٤٣
٣٤ ـ اللباب في تهذيب الأنساب ، لابن الأثير ـ القاهرة ١٢٥٧ ـ ١٣٦٩ هـ
٣٥ ـ المباحث اللغوية في العراق ، للدكتور مصطفى جواد ـ بغداد ١٩٦٥
٣٦ ـ المخطوطات اللغوية في مكتبة المتحف العراقي ، لأسامة ناصر النقشبندي ـ بغداد ١٩٦٩
٣٧ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، لجلال الدين السيوطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وآخرين ـ القاهرة ١٩٥٨
٣٨ ـ معجم الأدباء ، لياقوت الحموي ـ تحقيق أحمد فريد رفاعي ـ القاهرة ١٩٣٦
٣٩ ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ليوسف إليان سركيس ـ القاهرة ١٩٢٨
٤٠ ـ معجم المؤلفين ، تراجم مصنفي الكتب العربية ، لعمر رضا كحالة ـ دمشق ١٩٥٧
٤١ ـ معنى القول المأثور : لغة الضاد ، للدكتور ابراهيم أنيس ـ مقالة في الجزء العاشر من مجموعة البحوث والمحاضرات لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧
٤٢ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام المصري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة (بلا تاريخ)
٤٣ ـ المقتضب ، لأبي العباس المبرد ـ تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ـ القاهرة ٩٦٣ ـ ١٩٦٨
٤٤ ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، لأبي البركات بن الأنباري ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٦٧
٤٥ ـ النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري ـ وقف على تصحيحه الشيخ علي محمد الضباع ـ القاهرة (بلا تاريخ)
٤٦ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ـ تحقيق محمد محمود الطناحي ـ

القاهرة ١٩٦٣-١٩٦٥

٤٧ - هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين ، لاسماعيل باشا البغدادي - استانبول ١٩٥٥

٤٨ - وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٤٨

ثانياً : المصادر الإفرنجية :

C. Brockelmann, GAL (S) = Geschichte der Arabisehen Litteratur, Bd, I. II, Leiden 1943-1949 und Suppl. I-III Leiden1937-1942.

C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, Bd. I. II, Berlin 1908-1913.

G. Fuck, Atabiya, Untersuchungen zur arabischen Sprach - und Stilgeschte, Berlin 1950

C. H. Gordon, Ugaritic Manual, Roma 1955.

M. Höfner, Altùdarabische Grammatik, Leipzig 1943.

S. Moscati, An introduction to the comparative grammar of the semitic Languages ... bp S. Moscati,

A. Spitaler, E. Ullendorff and W. von Soden, Wiesbaden 1964.

F. Praetorius, Aethiopisehe Grammatik, New York 1955.